الصامتة ، الخ . كما كانت عروضه الراقصة تذكيها روح الحياةالشاملة في المغرب لما يبدو على المشاركين فيها من اتقان في حركاتهم اللطيفة ، ومن مميزات في البستهم الجبلية والقروية المنسجمة . ومن اهم الرقصات الفوكلورية التي احرزت النجاح الكبير في هذا المهرجان رقصة « الكدرة » العجيبة، وهي رقصة تعتمد اساسا على ايقاعات موسيقية ذات اصول عربية ، ورقصة « احيدوس » ذات الايقاعات البربرية، ورقصة «كناوة» ذات الايقاعات الزنجية.

الرافضة الجديدة

كومو (ايطاليا) ، س جمال م. احمد :

« يجافي عظيم النغم
ينغمه البحر ،
يكفيه من دنياه تل ،
وبين يديه دنيا حافلة ،
ترجوه ان يختار ».
— طوم غن

الرافضة الجديدة هي هذه الكثرة الكاثرة ، من اساتذة الجامعات في الولايات المتحدة ؛ شبابا كان في العشرينات الباكرة من عمره، اخريات الحرب العالمية الثانية ، ورأى من شرور الحرب في اوربا ، وقد اسهمت الولايات المتحدة فيها اسهاما بعد بيرل هاربر . دخل الجامعات من بعد ، رجالا نضجا ، يرون بين الذي يدرسون من علوم وفنون، وبين الذي خبروه في الميدان، صلة تتيح لهم الحوار العاقل مع اساتذتهم ، والجدال المنير ، وخرجوا هم انفسهم اساتذة، يدرسون بعض الذي قرأوا وبعض الذي خبروه في الحياة ، وتخرجوا على ايام لا تشيع الطمأنينة في النفس : انتهت الحرب الكبيرة في المسرح العالمي كله ، وعقبتها الحروب الصغيرة هنا وهناك في كل شطر من اشطار العالم . اذاً لم تنه الضحايا الملايين في آسيا و اوربا ولم تنه هيروشيما الحروب ، كما زعم الزاعمون بادىء بدء . كانوا في ثلاثينات عمرهم ايام كوريا ، يتحدثون في حجرات راحتهم في الجامعات عن العبث فيها وعدم جدواها، وفي اربعيناتهم الباكرة الآن التقى نضج الرجولة فيهم ، بوضع سياسي لا يريح . دعوا للرئيس جونسون وعملوا من اجله ما يستطيعون ، كيلا يتولى القيادة غولدووتر ، واذا بهم نهاية المطاف امام معضلة ما اتت في البال : جاؤوا بالرجلين معا ، كما يعبر بعضهم . يعنون انهم اتوا برجل حاذق ينفذ ما اعلن منافسه من سياسات مروعة . اتوا برجل كتوم قوي الشكيمة يقزم جنبه كل ذكي وكل قادر، ظله فوق كل مكان ، وشخصه كطوله وعرضه ، لا يقاوم . شاطر وقادر .

ما كان ممكنا ان تتلقى هذه الفئة الذكية من شباب الجامعات خيبتها هذه وهي راقدة كما يقولون. قاومت بكل سبيل فكري سياسات الادارة في فيتنام ، ونقلت المقاومة الى الجدال الجماعي مع قادة الادارة الحكومية في واشنطن ، تشهده ملايين الرجال والنساء ، لا في الجامعات وحدها بل على شاشة التلفزيون . جدال في كل جامعة ، عرف في النهاية بالتعليم الداخلي ، يشترك فيه المعلمون ليدفعوا الامريكان دفعا لمقاومة تلك الحرب ، واشترك فيه قادة الادارة من اهل الفطن والمعرفة ، امثال بندي مستشار الرئيس لشؤون الامن، وقدم له من بريطانيا اساتذة فحول يرون رأي هذا الفريق من اساتذة الإمريكان .

ما كان كبيرا عدد الرافضة الجديدة في الندوة التي اجتمعت في فيلا سربلوني ، على بحيرة كومو، شمالي ميلانو بايطاليا . كان عددا صغيرا، اكثره من جامعة هارفرد ، الجامعة التي تشرف على الاكاديمية الامريكية للعلوم والفنون، التي دعت لهذه الندوة، بعون من منظمة حرية الثقافة ، ليتفاكر علماء الاجتماع وعلماء الطبيعيات وعلماء الاقتصاد في حال الدنيا — كما نعبر نحن — ليديروا بينهم الرأي ، في الذي ينبغي ان يعمل ليسود في العالم نظام ، وقد

فقد الحصان الرسن . ساعود للرافضة الجديدة بعد حين ، واحب ان اقف قليلا هنا ، لاتحدث عن المجتمعين في الندوة ، وعن فكرة الندوة .

كان المجتمعون ينتمون لفروع عدة من فروع المعرفة ، وقد قصدت الاكاديمية قصدا الى هذا ، فما تيسر من قبل للمختصين في الفروع العدة من المعرفة ان يناقشوا امرا ذا خطر. درجت الندوات العالمية على دعوة المعلمين الاقتصاديين مهندسي التخطيط وغيرهم ، ليديروا الرأي من وجهة نظر ذلك الفرع الوحده من فروع المعرفة. يتكلم المجتمعون لغة واحدة هي لغة ذلك العلم او الفن الذي اليه ينتمون. وكانت، من الذي رأيت انا على الاقل ، تجربة ناجحة هذه الواحدة . كان في الندوة علماء اجتماع يلقون على طلابهم محاضرات في المنظمات العالمية والشؤون الدولية ، وكان فيها علماء طبيعة يدرسون علم التوليد والكيمياء ، وكان فيها اقتصاديون يخططون لبلادهم النامية ، وكان فيها معلمو اقتصاد ومهندسو تخطيط . كان يوما طريفا ، ذلك اليوم الذي اقترح فيه طبيب في الندوة، ان تعمل المنظمات الانسانية، كاليونسكو ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة الغذاء وما من هذه بسبيل ، بمعزل عن المنظمات السياسية، كالامم المتحدة . كان طريفا منطقه : ان هذه المنظمات تتأثر في اعمالها بالجدل السياسي ، وهي وحدها التي تقرب الشقة بين الانسان في المناطق المحتاجة والمناطق المكتفية . انها اقيم من اي برلمان عالمي ، ولذا ينبغي الحرص عليها ، ولا سبيل لهذا الا اذا عمل العلماء والخبراء في هذه المنظمات بعيدين عن قلق السياسة . نظرة ساذجة ، حين الخصها كهذا ، ولكن الطبيب الذي عرضها على الندوة كان مخلصها لها ، نافح عنها ، امام علماء الاجتماع ، صباحا باكمله ، يقول ان علماء الطبيعة ، عليهم ان يعملوا لاكاديمية علمية عالمية ، بعيدة عن قلق السياسة والساسة : اذاً لمشى الانسان خطوات بعيدة نحو الكمال ، وقربت الشقة بين اطرافه الشبعى وتلك المتخمة .

ولنعد للرافضة الجديدة ، قبل ان نمضي في الحديث عن النقط التي شغلت بال اعضاء الندوة . قلت انهم شباب ما عرف الاستقرار حياته ، فنظر للانسان نظرة متشائمة . كل الذي يستطيعه الانسان هو ان يحيا حياة العاجزين، لانه صنع هكذا بعيدا بعيدا عن الكمال ، ما خلق ظلا لله على الارض كما يحسب . خلق جشعا انانيا معتديا غليظا ونكدا ، الصدام والعنف غايتاه؛ مجالس تشريعه لا تستطيع ان تخطط لشيء ذي اثر ، وان فعلت عجزت مجالس التنفيذ عن ان تنفذ ، ولو لم يكن الانسان انسانا على النحو الذي نعرف – قصير العمر، قليل الحيلة – لتيسرت عمليات التخطيط الاقتصادي والتعليمي . تتأرجح هذه العمليات بين الفشل والنجاح ، لانها تريد ان تعالج الانسان ، وما في الطوق ان يعالج. سيظل هكذا يترنح، حتى يخرب الحياة على الارض، يوما ، وهو غافل او غاضب ؛ اكثر ما يستطيعه السياسيون هو ان يخففوا عن الانسان احزانه ، فهو في الحضيض واحزانه كثيرة . ولو لم يكن الانسان هكذا ضجرا ملولا عنيفا حاقدا ، لنجح روزفلت حين خطط للتعادل في بلاده ، فالانسان لا يهتدي بعقله ؛ تنتابه اعاصير نفسية في داخله ، تجتاحه ، سفينة في الخضم ، ربانها خائف . وعلى اية حال ، ما دخل الانسان في الحياة ؟ الم يقل واحد من الاولين انه جاء اعتباطا هذه الارض ، نتاج عملية طبيعية ، ما كان في ذهنها ان يكون الانسان ! فضولي .

قال اقتصادي في الندوة من هولاندا : « هذه البدعة في بعض جامعات الولايات المتحدة تغمني ، وتقبض النفس ، ما غايتها ؟ » ثم علق على حديث كان قد ساقه مهندس من هؤلاء المتشائمين ، قال فيه ان التخطيط للمدن لا يعرف الاخلاقيات ، وان التخطيط الاقتصادي لا يمس جوهر الانسان ، اخلاقياته . قال الاقتصادي الهولندي ، مغيظا حانقا ، ان فكرة التقدم لا زالت معنا . لم تمض مع القرن التاسع عشر ، وقد اقترب الانسان بعضه من بعض ، وزادت حاجته للتكامل . اكتشف ان اكثره يولد للتعس والضنك وهو يسعى ليعين بعضه بعضا الآن ، كما سعى الخيرون داخل الاوطان المفردة . ضاقت قليلا الفجوة بين المواطنين في البلاد الصناعية ، وهي تضيق يوما بعد يوم ، وعلى الاقتصاديين في العالم ان يعملوا لتضييق الفجوة بين

المواطنين في البلاد الصنـــاعية والمواطنين في البلاد الاقل حظا الآن . ينمو العالم بعون وكالات الامم المتحدة ، وعون الاتفاقيات الثنائية ، ويهدف الى ان يرتفع هذا النمو الاقتصادي الى سبعة في المائةفي البلاد قليلة الحظ من الثراء . « اننا نشقى ، نحـن الاقتصاديين ، ونخطط ، ومـا ذاك بالعمل الهين ، فليشرح لنا علماء السياسة كيف يخططون. انه عمل ناقص هذا الذي نعمله ، ولكنه سيقود في النهـاية لشيء من الوفرة والسعادة » . قال ما قال طوم‌غن حين نعى على « كاره البشر » رؤاه التي تـأبى ان تفارق اقدامه :

« ويسوح في صمت
يتوه عنده خضرته
يذوب عند سمرته ،
يبحث هنا
وهناك عن شبك
بعيدة .
ويضيع في غاب كثيف
يوثقه .
تمشي على صخرات
كبرى تدمعه .
فرط الجراح
في ركبتيه .
لا يبنى على الارض ابراجا
يراقب فوقها ،
يحيا كما تحيا الطيور
تقفز من ارض لارض
تنقر ،
راضيا عن حاله ، عن نفسه
ويستطيع الخفا وقتا
لا يَرى
لا يُرى.
ويظل يسعى مثلها
فوق الزمان الراهن ،
يبقى هناك على
جناح واقف ،
وقف الزمان .
لا يمسه
لا يدعه ان يمسه .
وييقظ بعض حين ،
اثر يحسه .
حجارة تتساقط حول جنبيه
فيذكر :
حرب تسعر ، لا تذر
وحشية
اخذت عليه كل قطر منه
اختفت في صخبها
اصوات وجدانه
لا تعتمل».

لكن الرافضة الجديدة ، كالرافضة في تراثنـــا القديم ، ذكية قوية النفس ، تعبر عن نفسهـا خير تعبير ؛ كانت في النذوة بالمرصاد ، لكـل من يرى رأيا يعين هذا التفتت في الموقف الدولي والتنافر . قـــال لورد غلادون غب ، وهو من تعرف دربة وخبرة ، ان علاج هذا التفتت في الاقليمية ؛ وكان منطقا قويا منطقه : ان القومية مـا زالت عنصرا فاعلا في الشؤون الدولية ، وكان من حق التقدم على الدول الصنـاعية ان تخفف كثيرا من اسرافهـــا في التمسك بالسيادة القومية ، فقد مـــارسته بعضها اربعة قرون الآن ، ولم تجنِ من كبريائهـا هذه الا الحروب،والقومية في البلاد حديثة العهد بالاستقلال عنصر نافع ، يدعو للتماسك ، فاكثر هذه الامم لم تخرج من نزعاتها القبلية الا قبل قليل . كان الاوفق ان تقل‌حدة السيادة القومية في اوربا، فقد تكونت امها ، وانتهت نزعاتها القبلية ، ولكنـا نشاهد على ايامنا هذه ، جنوحا اليها وتمسكا بها ، الامر الذي يستحيل معه العمل الجماعي على الصعيد الانساني . لنسر نحو وحـدة الانسان اذاً ، سيرا خفيفـــا ، ولنخترع طريقا وسطى بين القومية الجامحة والعالمية غير المستطـــاعة الآن . هذه الطريق الوسط هي الاقليميـة ، تلتئم دول اوربا الغربية ، فبينهـــا حضارة مشتركة وثقافة جامعة واقتصاد بقليل من التخطيط متكامل ؛ وامريكا اللاتينية بين اقطارها كثير يجمعها ؛ وبلاد الشرق العربي تعود سيرتهـــا الاولى،فهو انفع لاقطارها وادعى للوفرةوالقدرة — ان ادرك اهلها ان فردية العرب التاريخية لم يعد لها مكان اليوم ، سعد افرادها يصنع من سعد اقليمهـا الواحد ؛ وبلاد افريقيا العديدة ، يجتمـــع الذين

تجمعهم وحـــدة في الشرق او في الغرب . هذه الوحدات الكبيرة ، اقرب الى ان تتعايش،واقرب الى ان تعلم الانسان ان سيادته المحلية وحدها لا تقود لكثير ، بينا السيادات المشتركة هي طريق الخصب المادي والروحي . ان الحكومة العالمية حلم بعيد ، والامم المتحدة ما استطاعت حتى الآن ان تحقق كل الذي كان يرمي اليه الناس عقب الحرب ، فلنجرب الاقليمية داخل اطارها الحالي ، لعلنـــا نصل الى نظام يستقر عنده الانسان . وعزز هذا الرأي جماع الذي قاله الاستاذ جفريبي عن الانسانية الجديدة ، ومـــكان الفكر والمفكرين في العالم المعاصر ، يخططون للتغيير ، فقد كان كل تغيير وقع حتى الآن ، اعتباطا ، وكل تقدم صدفة ؛ بقليل من التعاون بين مفكري العالم ، يستطيع الانسان ان يحتاط لمستقبله .

انبرى لهذه الفكرة هوفمان ، قـــائد اورطة المتشائمين ، واكثرهم قدرة، فقال ان الاقليمية ادعى الى التقاتـل . عوض ان تحترب قوميتـــان عبر حدودهما تتجمع القوميات المتماثلة، لتحارب بعضها بعضـا . عوض الحرب عبر حدود صغيرة ، تثور الحرب عبر حدود عريضة . امـا المفكرون فهم الذين — او اكثرهم — يدفعون بالانسان المعـاصر حتى الهاوية ، يعودون به وقد رأى الهلاك بعينه، للتعقل والتدبر . المفكرون لا يعنون الا بمقدار . اكثرهم يسير سير السلطة القائمة ، ينفخ في روحها ، يبرر اعمالها، يحرق البخور لها، والقلةالقليلة هي التي تسعى لصنع نظام يحفظ للانسان امنه .

لكن الندوة سارت سيرتها الوسط ، لا متشائمة كما اراد لها الرافضة،ولا ساذجة كما اراد لها واحد او اثنان ، ممن يضيقون بالخلل الذي يعيشه العـالم اليوم ، فيقترحون ان « تصنع الثقافة » وان تقوم « جمهورية العلماء » وما الى ذلك من سبل . سار طريق المعتدلين امثال تنبرج عالم الاقتصاد من هولندا وطريق جفريبي عالم الاجتماع من البرازيل وطريق نكول مدير جامعة فريتون الذي هز مشاعر الناس وهو يقول: «ولدت في حضارة وربيت في اخرى» ، يقصد ان يقول انه ولد في حضارة افريقية خالصة وتعلم في حضارة اوربية مغايرة . قال اكثر هؤلاء (وارجو ان يخرج كتاب الندوة، وفيه اكثر الذي قيل) ان التوازن الذري بين قوتي العالم الكبيرتين قد حفظ السلم حتى الآن ، ولكنه توازن هش غير بعيد ان يختـل بفعل معتوه او بصدفة ، توازن لا يدعو للاطمئنان . لا معدى اذاً من نظام عالمي ، وان كان صعبا الوصول اليه . استعرضت في هـذه السبيل آراء عدة — تقوية الامم المتحدة، تشجيع الوحدات الاقليمية ، العمل على حكومة للعـــالم كنفدرالية . وتحدثت الندوة طويلا عن هدف كبير للانسان ، تجتمع حوله البشرية ، وقيل ان الهدف ينبغي ان يكون تحسين حال الانسان المادية ، فهو في اكثر اقطاره جائع مريض جـــاهل . وتحدثت الندوة طويـلا عن جنوح الدول الصغيرة للكبرياء المفرطة ، وكان بن بيـــلا تلكم الايام واحدا من المرموقين ، ونقـل عنه المتحدثون في الندوة قولته الشهيرة : لن نفرط في عزتنا وان ربطنـا البطون جوعا ، او كما قال .

كان اسبوعا مليئا بالنشاط الذهني ، قاده ريمون ارون قيادة حية نشطة ، وراعني هذا الحنو عليه والود من زملائه ، فقد بلغ هذا المفكر الاجتماعي الكبير عامه الستين منذ شهور وهو مـا يفتأ يلقي محاضراته على طلاب علمه الكثيرين في السوربون ، ويكتب مقـــاله الاسبوعي الشهير في « لموند » ، ويخرج كل عامين او ثلاثة كتابا تشغل اوربا نفسها به ، عدا مقالاته التي يكتبهـــا من حين لحين في كبريات الصحف العالمية، كان آخرها مقاله عن فكر سارتر في « الانـكاونتر » ، حين بلـــغ هو الآخر الستين، وكانت بينهما على عهدهما الاول صداقة عذبة طوحت بها السياسة حينا طويلا ، واعادتها جريحة منذ سنين قليـــلة ، وقد كبرت السن ، واستوى اليمين واليسار عندهما ، لا يريان مذهبا الآن ، بل يريان حياة واقعة عمل كلاهما قليلا في صنعهـــا على النحو الذي هي عليه الآن ، بالذي علماه والذي كتباه عبر السنين . اضاف للندوة كثيرا من هذه الحيوية الذهنية، واضفى عليه الحاضرون كثيرا من اعجابهم بما انجز حتى الآن ، وبما يعمل اليوم ،وقد استوى — كما قلت — عنده اليسار واليمين ، كل يسرف في الذي يرى وقد انتهى عهد الرؤى الآن وحل عهد الوقائع، لا تشبه واحدة اختهـــا ، ولا سبيل للقياس . السبيل الاجتهاد .